

المكون الوصفي واشتغاله

في خطاب أدب الرحلات

رحلة ابن فضلان «نموذجاً»

♦ د محمد البقالي⁽¹⁾

لنقرّ بدايةً أن مصطلح «أدب الرحلة»، بوصفه مجموعة من النصوص والخطابات والأنواع المتداخلة والمتفاعلة، يطرح إشكالات التصنيف والتجاوز هذا الإشكالات، نظر كثير من الدارسين إلى أن بنية السفر تمثل محمداً أجناسياً ثابتاً وحاسماً للكتابة الرحلية. فقد ميزوا بين موضوع السفر⁽²⁾ الذي قد يكون مادة كثير من النصوص غير الرحلية وبين بنية السفر الذي يحدد الهوية الأجناسية لأدب الرحلة. ومن هذه الخطابات التي تشكل في مجموعها متن الرحلة الخطاب الوصفي. فهو مكون بنيوي وثابت لهذا الجنس على غرار خطاب السرد الرحلي. ولتوضيح كيفية اشتغال الوصف في نصوص أدب الرحلة، اعتمدنا نص رحلة ابن فضلان متنا لدراسة واختبار هذا الإشكالات. وقد حفزنا هذا المتن بما تمتع به صاحبه من كفاية كبيرة على الوصف، ومن الحضور المكثف لهذا النمط الخطابية. وهي الملاحظة التي نبه عليها محقق الرحلة، على سبيل التعجب، قائلاً: «والعجب أشد العجب في هذه الرسالة، يخطها رجل فقيه، فيجيد الوصف على أروع ما يوجد فيه الأدباء، يصوّر ما يجول في نفسه من مشاعر الفرح والغبطة والخوف والفرح، والعجب والدهشة، فيقربنا من المشاهد التي رأى تقريب أديب أريب لا فقيه مبشر. ولولا أنه ذكر مهمته وألح على بيانها، وأكثر من النصح والنهي، لسلكناه في الأدباء والقصاصين فحسب، وذلك لبراعة قلمه وحسن بيانه وجودة عبارته، وشدة أسره، وعظيم إيجازه في التعبير، ودقته في اللفظ وانسيال الجمل على قلمه في سهولة ويسر، وفي تتابع من غير تقطيع ولا استطراد»⁽³⁾.

(1) باحث وكاتب من المملكة المغربية.

(2) الرحلة في الأدب المغربي النص - النوع - السياق، عبد الرحيم مؤذن، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006م، ص: 6. ويوضح بنية السفر «فهي الهيمنة للثوابت التي تصدر عن هذه البنية المفرزة لمتغيرات نوعية تأخذ خصائصها المميزة في أنواع المتن الرحلي».

(3) رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، أحمد بن فضلان، تحقيق وتعليق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1960م، ص: 28.

ب - من ناحية ثانية، نتعامل مع الوصف باعتباره نتيجة هذا الفعل، أقصد باعتباره مقطعاً وصفيًا أو مجموعاً وصفيًا، أي كما حدد جون ميشل آدم المقطع الوصفي على أنه «وحدة نصية يمكن أن تحدّ بصفقتها بنية أي بوصفها شبكة علاقات متراتبية، وحجماً نصياً قابلاً للتجزئة إلى أقسام مترابطة فيما بينها ومنشدة إلى الكل الذي تكونه»⁽⁵⁾.

وفي ضوء ما سبق، فإن رهان هذا المقال، هو تحديد السمات الخاصة والممكنة للوصف الذي نتصوره من خلال هذا المنظور المزدوج. ولا يمكن تحديد ووصف هذه الخصائص والسمات إلا من خلال استحضار خطابات سردية تخيلية أخرى تقوم بنيتها الخطابية على الوصف، وتستدعيه بلاغتها النوعية. وبالتالي فإن هذا المنظور المزدوج سيفرز عدة أسئلة، لعل أبرزها:

- أولاً، السؤال المتعلق بإدراج الوصف، ليس فحسب في وضعية تواصلية كنقطة اتصال بين متلفظ (الرحالة) ومتلقٍ (القارئ)، سواء أكان هذا الأخير متلقياً معيناً ومحدداً أم متلقياً مفترضاً، ولكن أيضاً ضمن البنية النصية الكبرى لمتن الرحلة التي تحتضن هذا الوصف. وبعبارة أخرى الإشكال المتعلق بانسجام الوصف تداولياً وبنويًا (أو سردياً وفنياً).

- ثانياً، سؤال العلاقة بالمرجع، فهذه العلاقة تمرّ من خلال الوصف الذي هو أهم السمات البارزة لأدب الرحلات، ويجب أن يأخذ هذا الوصف بعين الاعتبار مبدأ الغيرية. فالسؤال الذي يطرح بإلحاح عند كل وصف: كيف يدمج الرحالة وصف الآخر في سرده الرحلي؟

لكننا وإن وافقنا محقق الرحلة في انثيال الوصف وكثافته في متن الرحلة، حتى لا تكاد عين القارئ تخطئه في أي موضع من مواضع هذا المتن، فإننا لا نوافقها فيما ذهب إليه من مبالغة وعلو في وصف البراعة الأدبية لهذا الكاتب وكأنه أحد أرباب النثر الفني العربي القديم. لكن هذه المقدرة نبّه عليها أيضاً نقولاً زيادة قائلاً: «فإننا ننعّم نحن اليوم وقد مرّ على الرحلة ألف ويزيد من السنين بوصف دقيق طريف بأسلوب ممتع شائق»⁽⁴⁾.

ولعل الإشكال الذي سنخوض فيه في هذا المقال أن يكشف عن وجوه اشتغال الوصف في المتن الرحلي، وهي غيرها في نصوص سردية تخيلية معاصرة من قبيل الرواية والقصة والقصيدة التي يغلب عليها أيضاً الوصف على سبيل المثال. وهذا الاختيار المنهجي في المقاربة لمن شأنه أيضاً أن يضبط لنا مقومات بلاغة الوصف في جنس مخصوص هو جنس الرحلة. أي بصيغة أخرى، يمكننا أن نتساءل هل يؤدي إدراج عنصر أو بنية شكلية (الوصف) في نص خاص أو جنس محدد (أدب الرحلة) إلى تغيير طرائقه وتلوين وظائفه حتى يستجيب للمقتضيات البلاغية للنوع أو الجنس؟ ولمعالجة هذا الإشكال ينبغي، بداية، أن نتصور الوصف في هذه الحالة من خلال ناحيتين اثنتين: أ - من ناحية أولى، يشير الوصف إلى فعل الوصف أي الفعل اللغوي (acte de langage)، حيث يقتضي من كل دارس تحديد أبعاده التداولية والنظر إليه على أنه شكل من أشكال تواصل الرحالة مع القارئ. وهنا يجد الباحث نفسه مشدوداً إلى دراسة الوضعية التواصلية للوصف أو المقاطع والنصوص الوصفية المندرجة في متن الرحلة.

(5) *Eléments de linguistique textuelle, (théorie et pratique de l'analyse textuelle)*, J.M. Adam Mardaga, Liège, Belgique, 1990, p: 84.

(4) الجغرافيا والرحلات عن العرب، نقولاً زيادة، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1980، ص: 134.

إن عمليات إدراج الوصف في البنية الكبرى للنص الرحلي، وفي وضعية التواصل مع المتلقي، تمثل المحور الأول من المقاربة الدينامية للوصف المقترح في هذا المقال. فإذا كان من المفترض أن ينقل الوصف معرفة بالعالم المكتشف، فإنه يفسح المجال أيضا لإجراءات الكشف عن الغيرية. لكن الرحالة وهو ينزع إلى دمج الآخر أو الغير في خطابه الرحلي قد يعمل على استيعابه والهيمنة عليه وإعادة تمثيله وفق قوالبه الثقافية والإيديولوجية، وبذلك يتحول طموح الوصف من الرغبة في كشف الآخر وتقديمه للقارئ، إلى السقوط والوقوع في الصور النمطية والكليشيهات الجاهزة. وهو ما سنجليه في المحور الثاني من خلال تحليل نصوص وصفية من متن رحلة ابن فضلان.

1- سيرورة اندراج الوصف في أدب الرحلة:

1-1 الوصف والسرود الرحلي:

لقد خضع الوصف، خلال سيروته التاريخية، لانتقادات مستمرة وثابتة، نابعة من وضعه الأصلي. فقد كانت تعدّه البلاغة القديمة⁽⁶⁾، منذ البداية، تطورا حتميا للسرود، وأنه مجرد صيغة تخدم الحجاج، أي كحجة مساعدة أو غير مباشرة⁽⁷⁾. لكن في إطار تحرر المكون الأدبي (العبارة/الأسلوب) من سطوة البلاغة، فقد أتيح للوصف أن يوجد في الخطاب بعيدا عن الوظيفة التي لازمته منذ نشأته أي المقصدية الحجاجية، فصار يمكن أن يكون مقطعا فنيا، جاهزا ومعدّا سلفا وغاية في ذاته⁽⁸⁾. لكن الوصف، مع تطوره، سيتخلص من هذا

(6) المقصود البلاغة الأرسطية ذات المنزح الحجاجي.

(7) Dictionnaire de rhétorique, Gerges Molinié, le Livre de Poche, Librairie Générale Française, 1992, p: 112.

(8) Ibid, p: 123.

النقد لما سيندرج في سياق النص الرحلي. وهو ما يلمح بوضوح من قول بيير لاروس (Pierre Larousse) في معجمه الكبير: «يجب أن لا يشكل الوصف، ما لم يكن متعلقا بنص رحلي، أساس العمل الأدبي، بل يجب أن يكون زخرفا ومحسنا بلاغيا فحسب. [...] إن الجنس الوصفي لا ينبغي أن يستمر ويشيع إلا في الأعمال التي يكون وجوده فيها مبررا، أي إن الوصف، إذا لم يتعلق بنص الرحلة، لا ينبغي له أن يشكل جوهر العمل الأدبي، وإنما محسنا له وصورة زخرفية فقط»⁽⁹⁾.

ففي النص الرحلي، يستمد الوصف بشكل آلي وطبيعي مشروعية وجوده، وذلك باسم النزوع التعليمي الذي يسم نصوص الرحلة. إذ يعمل الوصف من خلال هذا النزوع التعليمي على نقل المعلومات والأفكار⁽¹⁰⁾. فابن فضلان مثلا كان حريصا على وصف مشاهداته في مختلف البيئات الطبيعية والاجتماعية التي مرّ منها، فمثلا عند وصفه تجرد نهر جيحون، يقول: «فأقمنا بالجرجانية أياما، وجرد نهر جيحون من أوله

(9) Grand Dictionnaire universel du XIXe siècle, Pierre Larousse, Tome VI, Article «Description».

(10) لقد أفاد الباحث بوشعيب الساوري هذا البعد التعليمي في خطاب الرحلة من خلال المهمة التي أوكلت لابن فضلان القيام بها ضمن الوفد المرافق له، يقول: «لما وصل كتاب ألمش بن يطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر، يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام. [...] فأجيب إلى ما سأل من ذلك. وكان السفير له نذير الحرمي، فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدى إليه، والإشراف على الفقهاء والمعلمين». ص: 69. وليس المقصود بالبعد التعليمي في أدب الرحلة ما ذهب إليه الباحث، وإنما يتجسد هذا البعد في المعارف المختلف والمتنوعة التي يزخر به متن الرحلة، والتي يكون الوصف سببا في تقديمها إلى القارئ. انظر: الرحلة والنسق دراسة في إنتاج النص الرحلي، رحلة ابن فضلان نموذجا، بوشعيب الساوري، مطبعة صناعة الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007، ص: 102.

يمكننا، إذن، أن نتحدث عن ميثاق مرجعي، كما حدده فليب لوجون⁽¹³⁾ (Philippe Lejeune)، مماثل ومرتبطة بميثاق السيرة الذاتية القائم على هوية موحدة للكاتب والشارد والشخصية الرئيسية كما هي حال رحلة ابن فضلان. في الواقع، يتم تقديم نص الرحلة بوصفه وصفا شاسعا متنقلا⁽¹⁴⁾. فالرحالة يريد إعادة تشكيل مسار الرحلة الحقيقي خطابيا. فكما أن الرحلة تميزت بمعالم ومشاهد وأحداث تحكمت في مسيرها، فكذلك إن الخطاب الرحلي ستتخلله، بانتظام وموازة مع السفر، مقاطع وصفية لهذه المشاهد. وهكذا عندما وصل ابن فضلان إلى بخارى وصف الدراهم الغطريفية وتركيبها وقيمتها⁽¹⁵⁾، وحين وصل خوارزم وصف وحشية أهلها ووصف كلامهم باستهجان⁽¹⁶⁾، كما وصف كلام سكان قرية قريبة من هذا البلد⁽¹⁷⁾، وفي بلد الجرجانية وصف تفاصيل تجرد نهر جيحون وتوسّع في وصف قساوة البرد في هذا البلد⁽¹⁸⁾، وعند وصوله إلى بلدة الغزية وصف مستبشعا بعض عادات أهلها⁽¹⁹⁾. لقد كان الوصف ملازما لسرد الرحلة ولم يكف الرحالة عنه أبدا، حتى انتهى إلى الصفحة الأخيرة من الرحلة حيث ختمها بوصف ملك الخزر ونظام حكمه⁽²⁰⁾.

(13) Pour l'Autobiographie, Philippe Lejeune, éditions du Seuil, Paris, 1998.

(14) قد تكون بنية الوصف عبارة عن مفردة أو تركيب نحوي موجز، وقد يمتد فيشكل مقطعا. وقد يقوم على مجرد التعداد فيتخذ شكل القائمة أو الجرد. انظر الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، محمد نجيب العمامي، مرجع مذكور، ص: 113.

(15) رحلة ابن فضلان، ص: 79.

(16) المرجع نفسه، ص: 82.

(17) المرجع نفسه، ص: 82.

(18) المرجع نفسه، ص: 83.

(19) المرجع نفسه، ص: 92.

(20) المرجع نفسه، ص: 177.

إلى آخره. وكان سمك الجمد سبعة عشر شبرا، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق. وهو ثابت لا يتخلخل. فأقام على ذلك ثلاثة أشهر⁽¹¹⁾. فلا شك أن هذا الوصف قدم معرفة ومعطيات دقيقة عن النهر ومدى تأثيره بشدة البرد وقساوته، بل مقدار سمك الثلج وصلابته لدرجة اجتياز الدواب عليه دون أن يتكسر هذا الجليد.

ولئن كان اندراج الخطاب الوصفي بسلاسة في متن الرحلة بسبب النزوع التعليمي لهذا الجنس الأدبي، فإن الوضع مختلف في النصوص السردية أو التخيلية الخالصة أو الشعرية، إذ يغدو التحكم في الوصف أمرا عسيرا، وأنه يصير «في صراع دائم مع النظامين السردية والشعرية اللذين يجب أن يندرج فيهما»⁽¹²⁾. ومرد هذه الصعوبة هو قيام العمل الشكلي لهذه الأجناس (القصيدة الوصفية والرواية مثلا) على الصنعة الأدبية، في المقابل سمة التلقائية والعفوية التي تطبع الوصف في جنس الرحلة. ولهذا السبب، أي تعارض الوصفي مع الشعرية والجمالية، أسند بيير لاروس، كما ذكرنا سابقا، حق وجود الوصف في نص الرحلة.

ولكي نحلل العلاقات القائمة بين الوصف والسرد غير المنفصلين في نص الرحلة، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن نص الرحلة يرفض أن يقدم نفسه على أنه نص تخيلي على الأقل بالنسبة لرحلة ابن فضلان. إنه في المقابل يلح على أن يكون نصا مرجعيا، يقصد الصدق المرجعي، أي التوافق والتطابق بين ما يتلفظ به النص والواقع الموصوف.

(11) رحلة ابن فضلان، مرجع سابق، ص: 83.

(12) الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، محمد نجيب العمامي، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2010، ص: 58.

هكذا يتبين مما سبق أن الوصف يتخذ وضعين أساسيين، على الأقل:

أولاً، يفرض جنس الرحلة على السرد أن يتخذ نظاماً تعاقبياً يستعيد مراحل الرحلة الواقعية والمرجعية. وبالتالي سيخضع الوصف للتجزئي والتفتيت، بحيث قد تغدو في غالب الأحيان مقطوعات وصفية غير مثيرة، ومتراصة بعضها الآخر من دون أي إثارة. وفي مقابل هذا الاستعداد الاختياري للوصف في متن الرحلة، يتمتع الوصف في النص السردى التخيلي بأهمية بالغة في الحفاظ على منطق السرد، حيث كل قطعة وصفية هي ضرورية في تماسك مجموع الخطاطة السردية. لذلك قد تسقط بعض المقاطع الوصفية في كثير من أجزاء الرحلة من دون أن يختل بناء النص. فعلى الرغم طول مكوث ابن فضلان بالجرجانية⁽²¹⁾ إلا أننا لم نظفر بوصف موازٍ للمدة الطويلة في الإقامة. هكذا نخلص إلى أن الوصف في النص الرحلي متعلق بذاتية الرحالة، وأما في غيره من النصوص السردية التخيلية أو الشعرية فهو متعلق ببنية العمل الفني ومنطق السرد فيه.

ثانياً، يمثل المكان والزمان محددتين أساسيين لرسم العلاقة بين الوصف والسرد. ففي نص الرحلة نلفي نوعاً من التبادل بين الزمن والمكان. ففي كل زمن أو تاريخ معين يناسبه مكان معين، وفي كل مكان يوافق تاريخ محدد. فالأحداث (السرد الرحلي) والمقاطع الوصفية (الوصف الرحلي) لا تقدم الخطاب الرحلي إلا بالتنصيص على الزمن الذي حدثت فيه أو المكان الذي تولدت فيه. والأمثلة عديدة في متن رحلة ابن فضلان، نذكر منها قوله:

(21) يقول ابن فضلان: «وتناول مقامنا بالجرجانية، وذلك أنا أقمنا بها أياماً من رجب وشعبان ورمضان وشوال. وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدته». رحلة ابن فضلان، ص: 84.

«فلما سرنا خمسة عشرة ليلة وصلنا إلى جبل عظيم، كصير الحجارة، وفيه عيون تنجرف عبره، وبالحفرة تستقر الماء»⁽²²⁾، وقوله قبل وصف بلاد الصقالبة «فلما كنا من ملك الصقالبة وهو الذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة [...] فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو نفسه [...] وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمائة»⁽²³⁾.

وثمة ملاحظة أخرى نضيفها تتعلق بهذه العلاقة، وهي التباس الوصف بالسرد. فقد يحدث أن تتزامن الوقائع والأحداث مع الأماكن الموصوفة نفسها. فتصبح أُنذاك المقاطع الوصفية مشكلة بذاتها أحداثاً، حيث يعمل الوصف، كما يقول الباحث الساورى: «على تحبيك الحكاية الإطار، انطلاقاً من التجربة، ويعطيها تشويقاً»⁽²⁴⁾. ومثال ذلك قول ابن ابن فضلان عندما وصل بلاد الترك: «ثم أوغلنا في بلد الترك لا نلوي على شيء، ولا يلقانا أحد، في بركة قفر، بغير جبل. فسرنا فيها عشرة أيام، ولقد لقينا من الضّرّ والجهد، والبرد الشديد، وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف، ونسينا كل ما مر بنا، وأشرفنا على تلف الأنفس»⁽²⁵⁾. فلا يكاد القارئ في مثل هذه الحالات يميز عمل الرحالة، أهو بصدد السرد أم بالوصف.

لكننا نعدّ هذا التداخل والالتباس وسيلة فنية لتحقيق التماسك والتنظيم الذي يهدف إلى التقليل من أثر التجزيء والتجاور والتراص البسيط الذي يتهدد المقاطع الوصفية داخل متن الرحلة.

(22) المرجع نفسه، ص: 90.

(23) المرجع نفسه، ص: 113.

(24) الرحلة والنسق، دراسة في إنتاج النص الرحلي، رحلة ابن فضلان نموذجاً، مرجع سابق، ص: 242.

(25) المرجع نفسه، ص: 89.

كذلك حتى تتكبد السماء»⁽²⁹⁾. فيكاد القارئ يشعر أنه أمام وصف ممتد غير متناهٍ أرخى بظلاله على السرد، ودفعه إلى أن يتوارى بعيداً، فكأن الوصف أصل والسرد فرع.

ويظل العامل الوحيد وراء تنظيم المقاطع الوصفية هو المسار الحقيقي والمرجعي للرحلة، الذي يعد لوحده بطل المغامرة، حيث تعمل تنقلاته على الربط بين المشاهد الموصوفة. وهكذا رأينا، في الأمثلة السابقة، كيف ينجح الوصف في التحرر من السرد في بعض الأحيان، وكيف يتقدم عليه عندما تهدأ وتيرة تعاقب الأحداث وتتوقف، مما يسمح بانفلات الوصف من تبعية السرد. وقد يطبع السرد الرحلي بطابعه، فيزج به في عالم الغريب والعجيب، ويجعل منه سرداً عجائبياً، ويبعد به، في المقابل، عن إطاره الأصلي أي السرد المرجعي، الذي أحد أهم المبادئ الأجناسية للنصوص الرحلية. يقول ابن فضلان في هذا الجانب: «ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرة. من ذلك: أن أول ليلة بتناها في بلده رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسية أفق السماء وقد احمرت احمراراً شديداً وسمعت في الجو أصواتاً شديدة وهمهمة عالية، فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، وإذا تلك الهمه والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدواب، وإذا في أيدي الأشباح التي فيه، تشبه الناس، رماح وسيوف أتبينها وأتخيلها، وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها أيضاً رجالاً ودواب وسلاحاً، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة. ففزعنا من ذلك وأقبلنا على التضرع والدعاء، وهم يضحكون ويتعجبون من فعلنا»⁽³⁰⁾.

وكثيراً ما ينشد الرحالة أمام المشاهد الغربية عنه، فيسترسل في الوصف حتى يتخذ هذا الأخير وضعا أعلى من السرد في نص الرحلة، وتنقلب بذلك تلك التراتبية التي كثيراً ما جعلت الوصف خادماً مطيعاً للسرد، خصوصاً في نظر البلاغة القديمة والنصوص القديمة. نلمس هذا الأمر في متن الرحلة خصوصاً في الفضاءات التي وجد الرحالة ابن فضلان نفسه غريباً عن ثقافتها وعاداتها وبيئتها، يقول عن عادة الضيافة والأكل لدى ملك الصقالبة: «فلما كان بعد ساعة وجّه إلينا، فدخلنا إليه، وهو في قبته، والملوك عن يمينه. وأمرنا أن نجلس عن يساره، وإذا أولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي، فدعا بالمائدة فقَدِّمت، وعليها اللحم المشوي وحده. فابتدأ هو فأخذ سكيناً وقطع لقمة وأكلها، وثانية، وثالثة...»⁽²⁶⁾. واستأثرت أيضاً بيئة الصقالبة باهتمامه لغرابة كثير من مكوناتها عمّا ألفه في بيئته، فشرع يسترسل في وصفها من دون توقف. يقول ابن فضلان: «ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً وإذا أنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار...»⁽²⁷⁾، ويضيف: «ورأيت القمر لا يتوسط السماء بل يطلع في أرجائها ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر. وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم «ويسو»؛ الليل عندهم أقل من ساعة»⁽²⁸⁾، ويضيف في نفس السياق: «ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شيء فيه من الأرض والجبال وكل شيء ينظر الإنسان إليه حيث نطلع الشمس كأنها غمامة كبرى، فلا تزال الحمرة

(26) المرجع نفسه، ص: 115-116.

(27) المرجع نفسه، ص: 125.

(28) المرجع نفسه، ص: 126.

(29) المرجع نفسه، ص: 126.

(30) المرجع نفسه، ص: 132.

لا يكف الوصف عن أن ينشئ علاقات متنوعة ومختلفة مع السرد الرحلي، فضلاً عما سبق، نلفي اصطلاح الوصف بوظائف تواصلية، حيث يمثل القارئ المؤول شرطاً حاسماً في بناء دلالات المقطوعات الوصفية.

1-2 الوصف والحوارية:

يمثل الوصف في المتن الرحلي خطاباً موجهاً للقارئ، وهو بذلك يحدد زوجاً تفضيلاً يعكس تسمية جديدة حسب فيليب هامون الذي تحدث عن «الواصف» و «الموصوف له»⁽³¹⁾. لهذا فإن كفايات المتلقي أو المخاطب أساسية، فهي التي تسمح له باستيعاب المعلومات الجديدة. إن الوصف يجسد فضاء خطابياً ضرورياً لتحقيق التواصل. إذ هناك حالات يُقدّم فيها الوصف للقارئ قصد إعادة بنائه من جديد. لأجل هذا يتميز النص الرحلي بخاصية تجعل من القارئ شريكاً للرحالة ورفيقاً له في سفره.

وقد أشار إلى هذه الميزة الحوارية للوصف الباحث نجيب العمامي من خلال جملة من الأسئلة التقريرية. يقول في مؤلفه «الوصف في النص السردية»: «أليس الوصف أولاً وقبل أن يكون عرضاً للعالم إخراجاً لبعض «أوضاع» postures مرسل النص ومتلقيه؟ ألا يقيم الوصف أفق انتظار جديد، عقد قراءة جديد، ألا يستدعي، في النص، صورة جديدة للباحث (الواصف) ألا يدعو

إلى وضع جديد للقارئ (الموصوف له) ألا يتطلب كفاءة للقارئ جديدة ومختلفة ومخصوصة»⁽³²⁾. لقد كان ابن فضلان مدعواً لتفسير الغرائبية التي وصفها في بلاد الصقالبة، عندما تراءت له غيوم السماء بمثابة كتائب تتقاتل، بالثقافة والمعتقدات المشتركة مع القارئ، وذلك حتى يبسط مظاهر التوتر التي يمكن أن يستشعرها القارئ من جراء حضور هذا العجائبي في متن السرد المرجعي الذي تقتضي طبيعته الجنسية الوفاء للواقع والأمانة في وصف الأحداث. فلأجل هذا عمد ابن فضلان إلى إبطال هذه العجائبية بالاستعانة بالمشترك في ثقافة القارئ. فردّد على لسان ملك الصقالبة قوله: «فسألنا الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون: إن هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم، وهم يقتتلون في كل عشية، وأنهم ما عدمو هذا مذ كانوا في كل ليلة»⁽³³⁾. إن هذه «الواقعية العجائبية» ترتبط «ثقافياً بمجموعة من المعتقدات التي تمثل ركيزة مجتمع من المجتمعات»⁽³⁴⁾. إن القارئ مضطر لتأويل معاني مثل هذه المقطوعات الوصفية بناءً على معتقداته وثقافته المشتركة بينه وبين الرحالة.

ومن ملامح حوارية الوصف، أنه لا يتوقف عن وصف عوالم الرحالة ومشاهداته وتقديم معرفة موضوعية للقارئ، وإنما يتحول إلى صياغة تقييمية لهذه المشاهدات. ومن ثم ينطوي هذا التقييم على دعوة للقارئ إلى تبني مواقف الرحالة، وإقامة حوار توافق بينهما. فالأمثلة عديدة، نذكر

(32) الوصف في النص السردية بين النظرية والإجراء، محمد نجيب العمامي، مرجع سابق، ص: 139.

(33) المرجع نفسه، ص: 142

(34) من السردية إلى التخيلية: بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، سعيد جبار، دار الأمان، الرباط، منشورات ضفاف، الاختلاف، الطبعة الأولى، 1434هـ/2013م، ص: 108.

(31) يقول فيليب هامون: «... ولكن الوصفي ينزع إلى استدعاء وضعيات خاصة للواصف والقارئ (الموصوف له) يشكلها في نصوص، كما يسعى بالتأكيد إلى التشديد على قدرة لغوية معينة لهذا القارئ المتلقي وإلى التماسها أولويًا...». انظر في الوصفي، فيليب هامون، تعريب سعاد التريكي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، 2003، ص: 15.

تخييلي للتواصل بين الرحالة وأي قارئ محتمل. أخيراً، نصل إلى نوع من الوصف الذي يعهد للقارئ تأويله، وهو الوصف الموجز والمكثف الذي يفضل الرحالة فيه الصمت عن كثير من تفاصيل الموصوف، ويترك قدراً كبيراً من الحرية للقوة الإيحائية للمتلقي ولمخيلته لبناء دلالة الموصوف. وهذه حال الوصف السلبي⁽³⁸⁾، حيث يقوم هذا النمط من الوصف على مبدأ عام يتمثل في تجنب المتكلم في الخطاب الوصفي التفصيل في مكونات وسمات الموصوف، تاركاً للقارئ مهمة تأويل هذه التفاصيل اعتماداً على تنشيط مخيلته الوصفي. ويترجم هذا النموذج من الوصف تلك المفوضات الوصفية التي يغلب عليها الإجمال والتعميم على غرار وصف ابن فضلان قبيلة الغزية: «وهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئاً، بل يسمون كبراءهم أرباباً»⁽³⁹⁾. فمثل هذا التعميم يدفع بالمتلقي إلى إرخاء عنان مخيلته لتجمع بعيداً وهي تشكل صورة عن الموصوف.

فبعدما أن وضّحنا أبعاد الوصف بوصفه فعلاً لغوياً أي تلفظاً يقتضي وضعية تواصلية طرفها الرحالة الواصف والمتلقي الموصوف له، سواء أكان هذا المتلقي معيناً ومحدداً أم افتراضياً، نتناول الآن الملفوظ الوصفي بوصفه أثراً ونتاجاً لهذا الفعل اللغوي، ونحلله انطلاقاً من مبدأ الغيرية وكيفيات تمثيل الآخر خطابياً.

2- الوصف تقديماً للآخر وتمثيلاً له:

إن غاية الوصف هي الإخبار، وهو مكان التقاء

منها وصف ابن فضلان لعادة اغتسال الرجال والنساء معا عراة في النهر. يقول: «وينزل الرجال والنساء إلى النهر، فيغتسلون جميعاً عراة لا يستتر بعضهم من بعض، ولا يزنون بوجه ولا سبب. ومن زنا منهم كائناً من كان ضربوا له أربع سكك، وشدّوا يديه ورجليه إليها وقطّعوا بالفأس من رقبته إلى فخذيه، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضاً. ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على الشجرة»⁽³⁵⁾. يدرك الرحالة الواصف أن هذا الفعل شنيع، وأن تلقي هذا الوصف لن تستسيغه المنظومة القيمية والثقافية والاعتقادية للمتلقي، لذلك سرعان ما يبرئ ذمته أمام هذا القارئ بقوله: «ومازلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك»⁽³⁶⁾. فلئن أخفق الواصف في تحقيق مراد المتلقي في هذا المقطع الوصفي، فإنه في موضع آخر من الوصف يتمكن من تقديم صورة ناجحة عن نفسه. يقول ابن فضلان: «ورأينا فيه أهل بيت يكونون خمسة آلاف نفس من امرأة ورجل قد أسلموا كلهم، ويعرفون بالبرنجار، وقد بنوا لهم مسجداً من خشب يصلون فيه، ولا يعرفون القراءة، فعلمت جماعة ما يصلون به»⁽³⁷⁾.

هكذا يتضح أن بنية الملفوظ الوصفي لا تنفك عن استدعاء قارئ مفترض، هو في الغالب يقاسم الرحالة معتقداته وثقافته، لبناء دلالة تامة لهذا الوصف، وكأن هذا القارئ شريك للرحالة ومرافق له في سفره، ومحاوّر له في مشاهداته. إذن يمكننا أن نقول، عن الوصف في هذه الحال، أنه موجّه إلى المخاطب لتبني مواقف الرحالة لا لتقديم معرفة عن عوالمه فقط. وهذا المخاطب ليس سوى مجال

(35) رحلة ابن فضلان، ص: 134.

(36) المرجع نفسه، ص: 134.

(37) المرجع نفسه، ص: 135.

(38) Dictionnaire de rhétorique, Gerges Molinié, le Livre de Poche, Librairie Générale Française, 1992, p: 113.

(39) رحلة ابن فضلان، ص: 91.

نسقين سيميائيين، نسق الرؤية ونسق الخطاب. وبالتالي، فالوصف يعتمد على عمليات الترجمة والتحويل والنقل من نسق إلى الآخر. فكيف يجعل الوصف القارئ يعتقد أنه ينسخ الواقع؟ كثير من الدارسين يميزون بين عمل المؤرخ وعمل الرحالة، فإذا كان الأول ملزماً بالتقديم الموضوعي المحايد لمادته وتنحصر وظيفته في وصف ما حدث فقط⁽⁴⁰⁾، حتى يكتسب المصدقية لدى المتلقي، فإن الثاني يعمل على إعادة إنتاج ما شاهده وما عاشه، فتصبح المشاهدات والوقائع مضمّخة بالذاتية، ومغلقة بانطباعات ومشاعر وأحاسيس وأيضاً مواقف الرحالة، ومما يضاعف من هذا البعد الذاتي هو تلك المسافة الزمنية الفاصلة بين زمن السفر والرحلة الفعلية وزمن التدوين والكتابة.

ومع هذا الإكراه الذي يواجهه الوصف، فإن قارئ رحلة ابن فضلان لا يعدم وجود مقاطع وصفية تصور الآخر تصويراً حياً، وتحافظ على أهم سماته وخصائصه التي تجعله ماثلاً أمام أنظار القارئ. ونمثل على هذا بمشاهدات الرحالة لشعب الروس، ونركز على وصف مشهد إحراق الميت. يقول ابن فضلان: «فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه: من يموت معه؟ فقالت إحداهن أنا؟ فوكلوا بها جاريتين تحفظانها [...] فلما كان اليوم الذي يحرق فيه والجارية، حضرت إلى النهر الذي فيه سفينته، فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدك وغيره [...] ثم جاؤوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات الديباج الرومي [...] ثم جاءت

امراً عجوز يقولون لها ملك الموت [...] فلما وافوا قبره نحووا التراب عن الخشب ونحووا الخشب، واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه، فرأيته قد اسودّ لبرد البلد [...] فألبسوه سراويل ورانا وخفا [...]»⁽⁴¹⁾. وينتهي هذا المشهد الدرامي بقتل الجارية وحرقتها مع سيدها الميت. وقد امتد وصف هذا المشهد طيلة عشر صفحات، واعتمد العرض الحي والمتحرك لسمات وخصائص الموصوف، خصوصاً لما فسح المجال لإجراء الحوار بين شخصيات المشهد مما ضاعف من درامية الوصف وحركيته، حتى لكأن المشهد مائل بتفاصيله أمام عيون القارئ. إذن، كيف يحاول الوصف إعادة تشكيل الرؤية المباشرة كتابياً، أي خطاباً؟

2-2- الوصف واعتماد الشفافية المثالية:

أ- المعاينة والتَّماسُ مع الأشياء:

إن الغاية من هذا الوصف الشفاف هو جعل القارئ وكأنه يعايش المرجع الموصوف، وكأنه وضع في قلب هذا المرجع الموصوف، يتلقى الموصوف عياناً لا خبراً ونصاً. لذلك يحاول الكاتب أو الرحالة أن يتجرد من ذاتيته في خطابه الوصفي. «معرفة الرحالة بالدرجة الأولى معرفة حسية، تستند إلى التماس المباشر مع الأشياء بواسطة الحواس. هذا ما نلمسه لدى ابن فضلان، الذي ركز على حاسة النظر والذوق في وصف الأشياء وتقريبها إلى المتلقي»⁽⁴²⁾. ومن ذلك حرصه في كثير من الأحيان على استهلال موصوفاته باعتماد أفعال تفيد المعاينة وتؤكد على شفافية الوصف، مثال ذلك قوله: «ورأيت عند الملك ثلاث طيفورات كبار تشبه الجزع اليماني عرفني أنها معمولة من

(40) من السردية إلى التخيلية: بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، سعيد جبار، مرجع مذكور، ص: 109.

(41) رحلة ابن فضلان، ص: 156-165.

(42) المرجع نفسه، ص: 235.

أصل قرن هذا الحيوان. وذكر بعض أهل البلد أنه الكركدن»⁽⁴³⁾، وقوله: «وما رأيت منهم إنسانا يحمر، بل أكثرهم معلول. وربما يموت أكثرهم بالقولنج...»⁽⁴⁴⁾. وهكذا تفيد جل موصوفاته أنه المحور الأساسي في الوصف من خلال المعاينة والمشاهدة المباشرة، لذلك جاءت أوصافه شفافة كأنها مشاهد حية أمام أنظار القارئ، وقد يعزز هذا المنحى هيمنة معجم الإدراك البصري مقارنة مع الإدراكات الأخرى.

كما يمكننا أن نلاحظ، على سبيل المثال، أن أشكال ضمير المتكلم المفرد قد تدع مكانها لصالح ضمير الجماعة، وذلك رغبة في إضعاف البعد الذاتي وتعزيز البعد الموضوعي في الملفوظ الوصفي، أي تقليل حضور الذاتية في الخطاب الوصفي لأجل التطابق مع المرجع الموصوف. وهو ما يستشف في قوله: «فلما أكلنا دعا بشراب العسل وهم يسمونه السجو ليومه ويومه وليلته»⁽⁴⁵⁾، وقوله: «فلما صرنا منه على فرسخين...»⁽⁴⁶⁾. والواقع أنه يمكن أن يحدث في كثير من الأحيان وهم الملاءمة والمطابقة التامة للغة والخطاب مع الواقع المرجعي، بشكل يؤدي إلى رغبة في خلق عالم ما انطلقا من صورة الكلمات، أو جعل القارئ يعتقد أن المرجع لا يمكن إلا أن يكون انعكاسا مثاليا للنص. هذا القلب يفسح المجال أمام بروز الصور النمطية التي تصوغ الآخر شكليا وفق المعايير التقويمية للرحالة الواصف. وهي معايير يشكلها الدين والثقافة والحضارة.

3- الوصف بوصفه استيعابا للآخر:

يرغب الوصف في الكشف عن الشعوب والمشاهد الطبيعية المكتشفة على نحو شفاف كما لو كان القارئ قد وضع مباشرة في المرجع الموصوف. ولهذا يعدّ الوصف مؤشرا على التحكم في الآخر واستيعابه مادام أنه أدمج في العمل المكتوب. فثمة عمليات ذهنية ينهض به الرحالة الواصف، حيث يُنَعَرَفُ على الاختلاف القائم بين الموصوفات وثقافة الرحالة أولا، ثم يتم تُخْتَزَلُ هذه الاختلافات ثانيا، حتى يتمكن الرحالة من وصفها.

إن اختزال الآخر يمرّ عبر كل استراتيجيات النقل والتحويل والمقارنة، والتي هي عمليات أساسية في متن الرحلة، وموجهة بحسب معتقدات الرحالة، مما ينجم عنها التركيز في الوصف على ما هو نمطي ثابت بدل المتفرد والخاص والمتغير. فترجمة الآخر إلى الذات، التي تهدف إلى إزالة الاختلاف، لا يمكن مع ذلك أن تكون بدون أثر للاختزال، ومن ثم الوقوع في الصور النمطية. فابن فضلان لما شرع في اقتحام العوالم المختلفة عن عالم الإسلامي المتمدن، طفق يصف الآخر وصفا يعج بأحكام القيمة. وهكذا نعت أهل خوارزم بأنهم «أوحش الناس كلاما وطبعا، كلامهم أشبه بصياح الزراير. وبها قرية على يوم يقال لها أردكو أهلها يقال لهم الكرديّة، كلامهم أشبه بنقيق الضفادع»⁽⁴⁷⁾. لقد مثلت لغة الرحالة مرجعا في تقويم لغات الآخر، فحكم عليها انطلاقا من بيانها وقداستها، فهي لغة القرآن، ولغات الآخر لا تفوق لغة الحيوان.

وهكذا يحاول الرحالة التخلص من الغرابة، بالنظر إلى نفسه معيارا مرجعيا وحيدا، لأن كلامه موجه إلى متلق من المفترض أن ينتمي إلى نفس المجال الثقافي مثله. كما أن شروط الكتابة الرحلية

(47) المرجع نفسه، ص: 82.

(43) المرجع نفسه، ص: 142.

(44) المرجع نفسه، ص: 143.

(45) المرجع نفسه، ص: 117.

(46) المرجع نفسه، ص: 113.

تعمق بدورها من عملية استيعاب الآخر والهيمنة عليه وتقديمه وفق النسق الثقافي للرحالة. فنظرا إلى أن هذه الكتابة الرحلية تشهد زمنين مختلفين، زمن المعاينة والقيام بالرحلة الفعلية وزمن سرد الرحلة وتدوينها، فإنها تكتب بوعيين مختلفين أيضا. ففي زمن السرد «يحضر وعي مغاير للوعي الأول [...] وهو وعي تخطيب الرحلة الذي يساهم في انتقاء الوقائع والأحداث وشحنها بدلالات قد لا تكون حاضرة في وعي الرحالة أثناء الرحلة»⁽⁴⁸⁾. فالمسافة الموضوعية والحيادية بين الواصف والموصوف هي وهم في الكتابة الرحلية، إذ «كل وصف ملفوظ، ولا ملفوظ بلا متلفظ، ولا متلفظ بلا بصمات تحيل إليه وإلى فعله»⁽⁴⁹⁾.

كما تعمل الوظيفة التقويمية للوصف على تقديم وجهات نظر الواصف بخصوص الآخر، وليس تقديم حقيقة هذا الآخر⁽⁵⁰⁾. فقد قدم صورة بشعة عن قبيلة الغزية، إذ وصفهم بأنهم «لا يستنجون من غائط ولا بول؛ ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك. وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصة في الشتاء. ولا يستر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم. وكذلك لا تستر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس»⁽⁵¹⁾. فعلى الرغم من خلو هذا الملفوظ الوصفي من أحكام قيمة صريحة تدين هذه القبيلة، إلا أن القارئ لا يملك إلا إدانتهم والاشمئزاز من سلوكهم بفعل تحكيم المرجعية الثقافية المشتركة مع الرحالة. لكن في ملفوظات

(48) من السردية إلى التخيلية: بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، سعيد جبار، مرجع مذكور، ص: 175.

(49) الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، محمد نجيب العمامي، مرجع سابق، ص: 190.

(50) الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، محمد نجيب العمامي، مرجع سابق، ص: 180.

(51) رحلة ابن فضلان، ص: 92.

وصفية أخرى، تكون السخرية مناط تقويم الآخر والاستهزاء به، مثال ذلك وصفه لشيخ تركي نتف لحيته وترك شيئا منها تحت ذقنه بأنه شبيه تيس⁽⁵²⁾.

يسمح المعجم المنتقى وتنظيمه بالتعرف إلى التوجيه الحاجي للوصف أو ما يسميه ما يسمى بالتوجيه التقويمي الحاجي الملازم لكل وصف⁽⁵³⁾. فعندما يصف ابن فضلان أحد الأتراك بالنعوت الآتية «فلما كان من الغد لقينا رجلا واحدا من الأتراك، دميم الخلقة، رث الهيئة، قمى المنظر، خسيس المخبر...»⁽⁵⁴⁾، لا يملك القارئ سوى تبني الموقف السلبي للرحالة من هذا الموصوف. فالوصف يقود دائما إلى نتيجة نفسها التي يقصدها الرحالة، خصوصا لما يكون الوصف تقويما. «إن الرحلة نحو الخارج هي رحلة المعرفة أولا، والحوار ثانيا، على اختلاف مستويات الحوار ومظاهره المتأرجحة بين الشدة واللين، وبين الحذر والوصف المحايد، بين القبول والرفض»⁽⁵⁵⁾. وأخيرا، نحلل بإيجاز العمليات الوصفية الاختزالية التي تسهم في بناء الصور النمطية للآخر.

3-1- الوصف والصورة النمطية:

إن عملية تمثيل الآخر من قبل ذات الرحالة، عادة، ما تنفي الاختلاف المطلوب ثقافيا لصالح الوحدة المتعسفة التي تسعى إلى مماثلة الآخر للذات مماثلة مطلقة واختزاله في «أنا» الرحالة. فعلى العموم، يمكن أن نلاحظ أن وصف الآخر يمر

(52) المرجع نفسه، ص: 101.

(53) الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، محمد نجيب العمامي، مرجع سابق، ص: 204.

(54) رحلة ابن فضلان، ص: 98.

(55) الرحلة في الأدب المغربي النص - النوع - السياق، عبد الرحيم مؤذن، مرجع مذكور، ص: 157.

على التعميم والإطلاقية بالمقارنة مع ما سبق وأن
رأه الرحالة، فتجربته مقياس في هذه الإطلاقية،
إلى جانب تفاعله مع هذه المشاهد الغريبة»⁽⁶⁰⁾.
ونلاحظ أن هذا التعميم يتسع تارة ليشمل الخلق
كله عند قوله «أوحش الناس» و«أقذر خلق الله»،
وتارة يضيق التعميم لينحصر في البلد الواحد مثل
قوله «شر الأتراك وأقذرهم».

وقد يتخذ التعميم، أيضاً، سبيلاً آخر غير
المقارنة باستعمال صيغ التفضيل، إذ نلفي ابن
فضلان ميله الشديد إلى الحكيم بصيغة العموم.
فنحن نعلم أن مسار الرحلة لا يتيح للرحالة أن
تكون مشاهداته شاملة ومحيطية بكل عادات
أهل البلد الواحد، وإنما يقتضي مسار الرحلة أن
تكون المشاهدات مخصوصة بمكان تواجد الرحالة
لا بالبلد كله. ومع ذلك ترد حكايات ابن فضلان
دائماً بصيغة التعميم، فيكون القارئ يصد
انتقال من حالة ملموسة وفريدة وخاصة إلى حالة
مجردة وعامة. ونمثل لهذا الجانب ببعض النماذج
الوصفية من قبيل قوله عن الأتراك «وهم مع ذلك
كالحمير الضالة لا يدينون بدين ولا يرجعون إلى
عقل، ولا يعبدون شيئاً»⁽⁶¹⁾، وقوله: «وإذا مات
الرجل وله زوجة وأزواج تزوج الأكبر من ولده
بامرأته إذا لم تكن أمه»⁽⁶²⁾. وهي صور وصفية
تنسم بالعموم والشمولية والإطلاقية، صور نمطية
عبارة عن كليشيهات جاهزة، ساعدت في تشكيلها
النظرة الثقافية المتعالية للرحالة المنحدر من
حضارة متمدنة وراقية (العباسية) بالقياس مع

باستراتيجيتين مرتبطتين فيما بينهما. الأولى عبارة
عن حركة تترجح من الخاص إلى العام، والثانية،
بوصفها نتيجة طبيعية للأولى، تنتقل مما هو
لملموس إلى ما هو مجرد.

إننا نلمس صيغ التعميم بشكل واضح في جل
المقاطع الوصفية في رحلة ابن فضلان، فكأننا بابن
فضلان لديه نزوع قوي إلى إصدار أحكام قيمة
عامة مطلقة غير قابلة للنقاش. فتراه ينعث سكان
خوارزم بـ «أوحش الناس كلاماً وطبعاً»⁽⁵⁶⁾،
ويصف كلام إحدى القرى بخوارزم بأن «كلامهم
أشبه بنقيق الضفادع»⁽⁵⁷⁾، ويصف الأتراك قائلاً:
«ووقفنا في بلد من الأتراك يقال لهم الباشغرد،
فحذرناهم أشد الحذر. وذلك أنهم شر الأتراك
وأقذرهم وأشدهم إقداماً على القتل يلقي الرجل
الرجل فيفرز هامته، ويأخذها، ويتركه. وهم
يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل، ويتتبع الواحد
منهم درز قرطقه، فيقرض القمل بأسنانه»⁽⁵⁸⁾،
ويصف الروس بأنهم «أقذر خلق الله لا يستنجون
من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا
يغسلون أيديهم من الطعام»⁽⁵⁹⁾.

يتضح من خلال هذه الأمثلة أن ابن فضلان لا
يتورع حين وصفه للآخر عن تبني صيغ التعميم
التي لا تترك مجالاً للقارئ بأن يؤمن أن ثمة
اختلافات قائمة داخل الشعب الواحد، بل داخل
القبيلة الواحد كما تقتضيها الطبيعة الإنسانية
بصفة عامة. فلأجل بناء هذه الأحكام التعميمية
اعتمد الرحالة صيغ اسم التفضيل. وهي، كما
يقول الباحث الساورى: «تشتغل صيغة التفضيل

(60) الرحلة والنسق، دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة
ابن فضلان نموذجاً، بوشعيب الساورى، مرجع سابق،
ص: 191.

(61) رحلة ابن فضلان، ص: 91.

(62) المرجع نفسه، ص: 94.

(56) رحلة ابن فضلان، ص: 82.

(57) المرجع نفسه، ص: 82.

(58) المرجع نفسه، ص: 107-108.

(59) المرجع نفسه، ص: 151.

الحضارات والثقافات الموصوفة.

كما أن كثيرا من الأحكام تكون جاهزة عند الرحالة في بعض الأحيان، ولا يمثل الوصف آنذاك سوى شاهد إثبات على ذلك وحجة يدعم بها الرحالة أحكامه. فهو عند وصفه السلبي للترك، يستهل هذا الوصف بإصدار حكم عام مثل قوله «وأما اللواط عندهم عظيم جدا»⁽⁶³⁾، ثم بعد ذلك يبحث عن صورة وصفية لحدث يعزز ويكرس هذا الحكم، فيقول: «ولقد نزل على حي كوزكين - وهو خليفة ملك الترك - رجل من أهل خوارزم. فأقام عند ضيف له مدة في ابتياع غنم. وكان للتركي ابن أمرد فلم يزل الخوارزمي يداريه ويراوده عن نفسه حتى طاوعه على ما أراد...»⁽⁶⁴⁾. وقد تكررت هذه صيغة في غير موضع من متن الرحلة⁽⁶⁵⁾.

إن المنطق الاستقرائي الذي يحكم الوصف في رحلة ابن فضلان هو الذي يؤدي إلى وصف شامل من خلال محو الخصائص والسمات التي يمكن وصفها، وأيضا من خلال اعتماد إجراءات التعميم. فالطريقة الوصفية للرحلة ابن فضلان، والتي تشتغل من خلال التعميم، هي موجهة من الخاص بوصفه مثلا عايشه وشاهده الرحالة، إلى العام بوصفه حكما تتطلع إليه ثقافة الرحالة المتعالية. وهكذا يُقدّم الموضوع الموصوف على أنه مثال وممثل للمجموع الذي ليس سوى وحدة متعالية بحكم النسق الثقافي للرحلة.

ومن الطبيعي أن تكون الصور النمطية للآخر، التي تحفل بها متون الرحلة بصفة عامة، مرتهلة إلى اللحظة الحضارية التي ينتمي إليها الرحالة. ف«لاشك أن الآخر في مرحلة قوة الدولة الإسلامية،

يختلف عن الآخر في مرحلة ضعف هذه الدولة. في المرحلة السابقة - مرحلة القوة والازدهار الإسلامي - كان الآخر موضوعا للحكي والإثارة والمتعة من جهة، وموضوعا، من جهة ثانية، للإصلاح والنقد من منطلق الإسلامي الكوني. أما في مرحلة الضعف الإسلامي، فإن الآخر أصبح محط الدهشة والانبهار أحيانا، ومحط تسليم واعتراف أحيانا أخرى بتجليات هذه الدهشة في الصناعة والعمران وإخضاع الطبيعة»⁽⁶⁶⁾.

خلاصة:

تقتضي معالجة الوصف بوصفه مكونا خطايا أساسيا في متن الرحلة النظر إليه من ناحية التلفظ، أي بوصفه فعلا لغويا. وهو ما يقتضي رصد وتحليل أبعاده التواصلية. فقد غدا الوصف في رحلة ابن فضلان مناط تواصل بين الرحالة الواسف والمتلقي الموصوف له.

لقد أبان الوصف في الرحلة عن نزوع حوارى واضح، سواء مع متلق مفترض أو مع البنية الكلية للنص الرحلي. هكذا تتبعنا أشكال العلاقات التي نسجها الوصف مع السرد الرحلي، إذ ألفينا في بعض الحالات تقدم الوصف على السرد والهيمنة عليه في الخطاب الرحلي، كما اتضح لنا بالتحليل أن الوصف يمثل فضاء خطايا افتراضيا لالتقاء الرحالة الواسف بالمتلقي الموصوف له.

لقد كان لابد ونحن ننظر في كيفية اشتغال الوصف داخل متن الرحلة، أن ننظر أيضا إلى صلته بالآخر والعلاقات التي ينسجها معه. فتارة يبدو تمثيلا شفافا له، وتارة ثانية يعمل على استيعابه والتحكم فيه، وتارة ثالثة يعمل على تنميط صور. إذن، لقد

(63) المرجع نفسه، ص: 97.

(64) المرجع نفسه، ص: 97.

(65) انظر على سبيل المثال، رحلة ابن فضلان، ص: 100.

(66) الرحلة في الأدب المغربي النص - النوع - السياق، عبد الرحيم مؤذن، مرجع مذکور، ص: 158.

ابن فضلان نموذجاً، بوشعيب الساورى، مطبعة صناعة الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007م.
- رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، أحمد بن فضلان، تحقيق وتعليق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1960م.
- في الوصفي، فيليب هامون، تعريب سعاد التريكي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 2003.
- من السردية إلى التخيلية: بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، سعيد جبار، دار الأمان، الرباط، منشورات ضفاف، الاختلاف، الطبعة الأولى، 1434هـ/2013م.
- الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، محمد نجيب العمامي، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2010م.

- بالفرنسية:

- Dictionnaire de rhétorique, Gerges Molinié, le Livre de Poche, Librairie Générale Française, 1992.
- Eléments de linguistique textuelle, (théorie et pratique de l'analyse textuelle), J.M. Adam Mardaga, Liège, Belgique, 1990.
- Grand Dictionnaire universel du XIXe siècle, Pierre Larouss, Tome VI, Article «Description».
- Pour l'Autobiographie, Philippe Lejeune, éditions du Seuil, Paris, 1998.

رام هذا المنظور، تحديداً، الوقوف عند التحدي المزدوج الذي يواجه الواصف، وهو التحكم في الآخر من أجل وصفه، والتحكم في الوصف من أجل إدراجه في الآن نفسه في نسيج السرد الرحلي. وقد تبين أنه على الرغم من الشفافية المثالية التي يرغب نص الرحلة في تبنيها عند تقديم الآخر وتمثيله، أي دون تشويه حقيقته، فإن الرحالة الواصف يعتمد ذاته كمنطلق مرجعي واحد، وأيضاً كسارد وحيد لحكيه، وأيضاً كمتكف نموذجي، مما يجعل هذا الآخر عصياً على الوصف ودائماً منفلتاً من طوق الوصف. إذ مهما ادعى الوصف في النص الرحلي الإفصاح عن كل تفاصيل الآخر الموصوف، إلا أنه يسقط في الاختزال والصمت عن كثير من عناصره، فتحجب آثار ثقافة الرحالة الصورة الحقيقية للآخر الموصوف، ولا تسمح للقارئ بالحصول سوى على صورة نمطية قائمة على التعميم.

قائمة المراجع:

- بالعربية:

- الجغرافيا والرحلات عن العرب، نقولا زيادة، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1980م.
- الرحلة في الأدب المغربي النص - النوع - السياق، عبد الرحيم مؤذن، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006م.
- الرحلة والنسق دراسة في إنتاج النص الرحلي، رحلة